الفصل الثالث

شعر الزبيريين

١

بدأت نواة الحزب الزبيرى تتبلور من حول شخصية الزبير بن العوام بعد خروجه إلى الكوفة فى عهد عثمان بن عفان ؛ حتى إذا ما حوصر الخليفة واتفق الثوار على خلعه ولم يتفقوا على من يخلفه كان هوى أهل الكوفة فى استخلاف الزبير (١) .

وقد استطاع عبد الله بن الزبير منذ أن أمّره عثمان على داره يوم حوصر أن يعمل على أن يبدو على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة، متحينًا الفرصة للوصول إلى تحقيق أهدافه .

وقد اتخذ من دعم الحزب الذى نكث بيعة علىّ سبيلا يصل به إلى أغراضه حتى صار وراء كل حركاته ، ولكن مقتل طلحة والزبير وهزيمة أهل الجمل أمام علىّ دفعت عبد الله بن الزبير إلى أن يرجئ تحقيق أهدافه إلى حين ، وكان لظهور معاوية بن أبى سفيان ظهوراً سافرا على مسرح السياسة أكبر الأثر فى إخلاده إلى الصمت وركونه إلى الهدوء مؤقتا . ولكنه ما لبث أن عاد يجمع من حوله أهل المدينة ليؤلف منهم حزباً معارضا قويًّا ضد سياسة معاوية مستغلاً إثارة المشاعر الدينية ضد تصرفاته ، منتقدا ما أحاط به معاوية نفسه من مظاهر الملك والترف ، وكان بانتهاجه نهج الصلاح والبساطة يوحى إلى أهل المدينة بأن يقارنوا بين ما هو عليه وما عليه معاوية .

---

(١) المختصر من أخبار البشر ج ١ ص ١٦٩ .

وقد أخذت تظهر فى هذه الفترة المتأخرة من حكم معاوية معارضة شديدة حمل لواءها أبناء كبار الصحابة ، فعمل عبد الله على توثيق أواصر الود والصداقة معهم ، وبخاصة مع الحسين بن علىّ الذى حرص على ملازمته فى الوقت الذى كان فيه معاوية يلعن أباه من فوق المنابر .

وقد كان معاوية يخشى على الخلافة الأموية من بعده هذه الطائفة من أبناء كبار الصحابة والتفاف الناس من حولهم ، فراح يغدق عليهم ويقضى حوائجهم مطمئنًّا إلى ما أعطاه له الحسن من الأمان بتنازله مختارا عن الخلافة ، وإلى أن الحسين لن يخرج عن إرادة أخيه ، واثقا من أن الزبير لن يرفع عينيه إلى الخلافة طالما كان الحسين على قيد الحياة .

ومع إحساسه بدنو أجله ، أخذ معاوية يعمل على توطيد الأمر من بعده لولده يزيد ، فزار المدينة سنة ٥٠ هـ متظاهرا بالحج ، واجتمع إلى أبناء الصحابة باستثناء أبناء علىّ وقد لقى معاوية من ابن الزبير الذى تكلم بلسانهم معارضة شديدة وتذكيرا بالصلح الذى أجراه مع الحسن والذى تعود به الخلافة من بعده شورى بين المسلمين .

وأرجأ معاوية الأمر حتى توفى الحسن فبادر فى نفس العام إلى أخذ البيعة ليزيد فى الشام وكتب بيعته إلى الأمصار ، ولكن أبناء الصحابة لم يستجيبوا لدعاء مروان بن الحكم والى معاوية على المدينة ، فأبلغ مروان الخليفة بمعارضتهم فكان جزاءه العزل وولى مكانه سعيد بن العاص فأخذ الناس بالحزم والشدة حتى لا يلقى مصير سلفه .

ويبدو من كتاب سعيد إلى معاوية أن ابن الزبير هو الذى قاد حركة المعارضة فى المدينة ضد مشروع البيعة ليزيد فقد جاء فيه : وأما الذى جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى هذا[1] .

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٢٩

وبعث معاوية بعدة رسائل إلى المعارضين من أبناء الصحابة واشتملت رسالة ابن الزبير على تحذيره مغبة المعارضة واللؤم ورد ابن الزبير منكرا على معاوية ما حذره وتوعده بأنه سيلقى أسداً فى عرينه ، واختتم رده بهذا البيت :

وأقسم لولا بيعة لك لم أكن لأنقضها لم تنج منى مسلما[1]

وحينئذ قدم معاوية إلى المدينة وعمد إلى الشدة مع هؤلاء الرهط المتأبين عليه وكان بطبيعة الحال أشد تحاملا على عبد الله بن الزبير فرحلوا إلى مكة ، وأوصته السيدة عائشة بأن يرفق بهم فقصد مكة وأظهر لهم الرفق والمحاسنة ، ولكن هذه الوسائل جميعا لم تجد معهم .

وكان ابن الزبير لسانهم الناطق فى هذه المرة أيضًا ، فخيّر معاوية بين أن يصنع صنيع الرسول أو صنيع أبى بكر أو صنيع عمر وأدرك معاوية ألا فائدة ، فجمع الناس فى المسجد وصعد المنبر وأقام على رأس كل واحد من هذا الرهط حرسيا ، وأمره أن يضرب رأسه إذا فاه بكلمة ، وأعلن للناس أن أبناء الصحابة جميعا قد رضوا بيعة يزيد وطلب له البيعة من الناس فبايعوا .

وآل الأمر إلى يزيد بعد وفاة أبيه ، فلم يكن يشغله شىء غير بيعة هؤلاء النفر من أبناء الصحابة ، فكتب إلى واليه بالمدينة الوليد بن عقبة بأن يأخذ له البيعة منهم ، فبعث الوليد يستدعى الحسين وعبد الله بن الزبير فأجاب الحسين دعوته فى نفر من بنى هاشم ووعد بالبيعة إذا خرج للناس ، أما ابن الزبير فقد أرسل أخاه جعفر إلى الوليد يرجئه إلى الغد وانسل فى نفس المساء إلى مكة وسرعان ما لحق به الحسين ولم يجد الوليد من هؤلاء النفر غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس فبايعا كما بايع الناس .

وفى مكة أعلن ابن الزبير أنه عائذ بالبيت ، وخشى عمرو بن سعيد بن العاص والى المدينة ما حل بسلفه نتيجة لتساهله مع الحسين وابن الزبير فرأى أن يتبع سياسة عنيفة معهما ، فولى عمرو بن الزبير شرطته وأمره بهدم دور بنى

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٣٠ .

هاشم وآل الزبير ففعل وبلغ منهم كل مبلغ حتى ضرب محمد بن المنذر بن الزبير مائة سوط وكذلك فعل بعروة بن الزبير لولا أن تحملها عنه محمد ولحق عروة بأخيه، وضرب عمرو الناس ضربا شديدا فهربوا منه إلى عبد الله بن الزبير[١].

وانتهز عبد الله الظروف فأخذ يثير على يزيد ووالیه حتى منع نائب الوالى فى مكة من أن يصلى بالناس ، وكانت نتيجة ذلك أن غضب يزيد وأقسم ألا يقبل بيعة عبد الله بن الزبير إلا إذا أتى إليه وفى عنقه جامعة . وأراد عمرو ابن سعيد أن ينال الحظوة عند يزيد فسير عمرو بن الزبير فى مقدمة ألفى رجل قاصدا أخاه فى مكة بعد أن بعث إليه برسالة يدعوه فيها إلى أن يبر بيمين الخليفة وأن يجعل فى عنقه جامعة من فضة ، ويحذره عاقبة تأبيه ، ولكن عبد الله لم يعبأ بتهديده وتمكن من هزيمة الحملة وقبض على أخيه فأودعه السجن وأقامه تحت السياط حتى قتل وأمر بألا يجهز أو يغسل وبأن يدفن فى مقابر المشركين بدعوى أنه مات مرتداً عن الإسلام[٢] .

وقد بدأ الشعر يسجل أحداث الزبيريين منذ ذلك الحين فحسب، وكانت أولى الأصداء التى ظهرت للحركة الزبيرية فى الشعر ما ندد به بعض الشعراء الأمويين بانتقام عبد الله بن الزبير من أخيه ، فقد تهكم به الضحاك بن فيروز الديلمى وسخر مما يدعيه من الزهد والصلاح ، ورماه بقطع الرحم ، وبأنه لا يرجى خيره وإلا كان أخوه أولى بذلك ، قال الضحاك :

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة ... وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئا قضمته ... كما قضمت نار الغضا حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تبيت بنعمة ... قريبا لردتك العطوف على عمرو[٣]

وكان عمرو بن الزبير صديقا للشاعر الأموى عبد الله بن الزَبير الأسدى ، فرثاه عبد الله ولام أخاه على ما فعله به كائداً له فى قوله :

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٥ .
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٥ ، جـ ١٣ ص ٣٧ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٩ .

أيا راكبا إما عرضت فبلغا ... كبير بنى العوام إن قيل من تغنى
ستعلم إن جالت بك الحرب جولة ... إذا فوّق الرامون أسهم من تعنى
فأصبحت الأرحام حين وليتها ... بكفيك أكراشا تجر على دمن
عقدتم لعمرو عقدة وغدرتم ... بأبيض كالمصباح فى ليلة الدجن
وكبلته حولا يجود بنفسه ... تنوء به فى ساقه حلق اللبن
فما قال عمرو — إذ يجود بنفسه ... لضاربه حتى قضى نحبه — دعنى
تحدث من لاقيت أنك عائذ ... وصرعت قتلى بين زمزم والركن
جعلتم لضرب الظهر منه عصيكم ... تراوحه والأصبحية للبطن
تعذر منه الآن لما قتلته ... تفاوت أرجاء القليب من الشطن
فلم أر وفداً كان للغدر عاقدا ... كوفدك شدوا غير موق ولا مسنى
وكنت كذات الفسق لم تدر ماحوت ... تخير حاليها أتسرق أم تزنى
جزى الله عنى خالدا شر ما جزى ... وعروة شرًّا من خليل ومن خدن
قتلتم أخاكم بالسياط سفاهة ... فيالك للرأى المضلل والأفن
فلو أنكم أجهزتم إذ قتلتم ... ولكن قتلتم بالسياط وبالسجن
وإنى لأرجو أن أرى فيك ما ترى ... به من عقاب الله ما دونه يغنى
قطعت من الأرحام ماكان واشجا ... على الشيب وابتعت المخافة بالأمن
وأصبحت تسعى قاسطا بكتيبة ... تهدم ما حول الحطيم ولا تبنى
فلا تجزعن من سنة قد سننتها ... فما للدماء الدهر تهرق من حقن[1]

وواضح أنه يعرض بعبد الله وبما ادعاه من أنه عائذ بالبيت وينديد بقتله أخاه تحت السياط وإهراقه دماء المسلمين بين زمزم والركن ، وقد راح يتوعده بمثل ما قدم من النكال والعقاب .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى طير اسم عبد الله بن الزبير فى الحجاز وجمع إليه الساخطين على يزيد فإنه لم يكن ليغفل حقيقة هامة وهى وجود منافس

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٣٨ .

خطير له هو الحسين بن على، ولكن الفرصة واتت ابن الزبير عندما نجح أهل الكوفة فى استخراج الحسين وما حدث من خذلانه وقتله على يد أعوان ابن زياد فى كربلاء .

وقد أفاد ابن الزبير من السخط الذى أثار مشاعر المسلمين بعد هذه الفاجعة فشمر للأمر الذى أراده ولبس المعافرى وشبر بطنه، وقال إنما بطنى شبر وما عسى أن يسع الشبر ، وجعل يظهر عيب بنى أمية ويدعو إلى خلافهم[١] .

وأخذ عبد الله ينعى فى خطبه وأحاديثه فى مجالسه على يزيد غدره بالحسين كما راح يعرض بفسقه ولهوه ، وقد أثمرت هذه السياسة فالتف حوله أصحابه وناشدوه أن يظهر بيعته إذ لم يبق أحد بعد الحسين ينازعه الأمر[٢] .

ولكنه استمهلهم حتى تتكشف الأمور وضاق يزيد ببطء عمرو بن سعيد فى معالجة أمر ابن الزبير واستجاب فيه إلى دسيسة من الوليد بن عقبة فعزله وولى الوليد مكانه ، وعول الوليد على أن يبز سلفه فأظهر الشدة ووقف ابن الزبير على حماسته وأراد أن يمكر به فأرسل إلى يزيد يعرض عليه أن يبعث برجل رشيد سهل الخلق ليسهل ماوعر من الأمر ، واستجاب يزيد فعزل الوليد وولى بدلا منه عثمان بن محمد بن أبى سفيان وهو فتى غر لا يكاد ينظر فى شىء من أعماله وقد بدأ عهده بأن أرسل وفدا من أشراف الأنصار والمهاجرين إلى الخليفة فى دمشق ظنًّا منه أنهم يعودون ألسنة داعية ليزيد ومناهضة لابن الزبير . ولكن خاب ظنه عندما عادوا يشهرون بفسقه وبمجونه وبملاعبته الكلاب والقرود ومسامرته الخراب وزادوا فأشهدوا الناس على أنهم خلعوه كنعالهم وأثوابهم وعمائمهم[٣] .

ولم تجد سفارة النفر الركب التى أنفذها يزيد إلى ابن الزبير برئاسة النعمان ابن بشير الأنصارى ومعه عشرة من وجوه العرب ، وقد أقبلوا حتى قدموا مكة وكان النعمان يخلو بابن الزبير فى الحجر كثيرا ، فقال له عبد الله بن عضاة،

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٨ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٤ .
(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ٤٥ ، الأغانى جـ ١ ص ١٢ .

وكان أحد الوفد يوما : يا ابن الزبير إن هذا الأنصارى والله ما أمر بشىء إلا وقدأمرنا بمثله إلا أنه قد أمر علينا وإنى والله ما أدرى ما بين المهاجرين والأنصار ؛ فقال ابن الزبير : يا ابن عضاةمالى ومالك ، إنما أنا بمثابة حمامة من حمام مكة أفكنت قاتلا حماما من حمام مكة ، قال نعم وما حرمة حمام مكة ؟ يا غلام ائتنى بقوسى وأسهمى فأتاه بهما فأخذ سهما فوضعه فى كبد القوس ثم سدده إلى حمامة من حمام المسجد وقال : يا حمامة أيشرب يزيد بن معاوية الخمر ؟ قولى نعم فوالله لئن فعلت لأرمينك يا حمامة ، أتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — وتقيمين فى الحرم حتى يستحل بك ؟ والله لئن فعلت لأرمينك . فقال ابن الزبير : ويحك أو يتكلم الطائر ؟ قال ابن عضاة : لا ، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم ، أقسم بالله لتبايعن طائعا أوكارها أو لتعرفن راية الأشعريين فى هذه البطحاء ثم لا أعظم من حقها ما تعظم ، فقال ابن الزبير : أو يستحل الحرم ؟ قال ابن عضاة : إنما يستحله من ألحد فيه . وإزاء هذا التهديد لم ير ابن الزبير غير أن يحبس الوفد شهرا ثم رده إلى يزيد ولم يجبه بشىء[1].

وكان نتيجة ذلك كله أن أخذ شعراء بنى أمية يسخرون من ابن الزبير ومن لياذه بالبيت ، وشبره بطنه متندرين بذلك من مثل قول أبى العباس الأعمى :

مازال فى سورة الأعراف يدرسها حتى فوآدى مثل الخز واللين
لوكان بطنك شبرا قد شبعت وقد أفضلت فضلا كثيرا للمساكين[2]

وعقب عودة الوفد إلى دمشق أرسل يزيد إلى واليه على المدينة بعدة رسائل أمره بأن يقرأها على الناس ، وكان فيها رسالة وعيد شديد ، ولم يكد أهل المدينة يسمعونها حتى انهالوا على الوالى والخليفة سبًّا مقذعا ، وصاروا يتنادون بخلع يزيد ، واستفحل الأمر فثاروا بالوالى وطردوه ، واتسعت الثورة فشملت بنى أمية جميعا فى المدينة وكان عددهم يزيد على ألف رجل لاذوا بمروان بن الحكم الذى بعث يستنجد بالخليفة وصمم أهل المدينة على طرد بنى أمية فأخذوا

---

(١) الأغانى ج ١ ص ١١ .
(٢) الأغانى ج ١ ص ١١ .

عليهم العهود بألا يدلوا على عوراتهم وأخرجوهم وخرج وراءهم الصبيان يحصبونهم بالحجارة ، ورفض عبد الله بن عمر أن يضم عيال بنى أمية إليه فضمهم على ابن الحسين ووجه بهم مع امرأته إلى الطائف .

وكان لإخراج بنى أمية من المدينة صدى قوى فى الشعر فبكاهم كثير من شعرائهم وتحسروا على ذكرياتهم فيها وكان أشدهم حزنا وأكثرهم بكاء أبو قطيفة الذى يقول فى ذلك :

بكى أحد لما تحمل أهله ... فسلع فدار المال أمست تصدع
وبالشام إخوانى وجل عشيرتى ... فقد جعلت نفسى إليهم تطلع[1]

وقد أخرج أبو قطيفة فيمن أخرجوا من بنى أمية فقال يحن إلى مشاهد المدينة :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا ... قباء وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاء قبر محمد ... أراهط عز من قريش تباكره
لهم منتهى حبى وصفو مودتى ... ومحض الهوى منى وللناس سائره[2]

وقد بين أبو قطيفة ما كان من إكراه بنى أمية على مفارقة المدينة ، وجعله فى شعره قدراً مقدورا لا يمكن دفعه فقال :

ألا ياليت شعرى هل تغير بعدنا ... جنوب المصلى أم كعهدى القرائن
وهل أدؤر حول البلاط عوامر ... من الحى أم هل بالمدينة ساكن
إذا برقت نحو الحجاز سحابة ... دعا الشوق منى برقها المتيامن
فلم أتركنها رغبة عن بلادها ... ولكنه ما قدر الله كائن
أحن إلى تلك الوجوه صبابة ... كأنى أسيرٌ فى السلاسل راهن[3]

وقد كثر تغنى أبى قطيفة بالمدينة وحنينه إليها وإلى أهلها حتى سمح له عبد الله بن الزبير بالعودة إليها بعد أن شاعت له أبيات فى ذلك المعنى تقول :

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٣ .
(٢) الأغانى جـ ١ ص ٤ .
(٣) الأغانى جـ ١ ص ١٥ .

ليت شعرى وأين منى ليت أعلى العهد يلبن فبرام
أم كعهدى العقيق أم غيرته بعدى الحادثات والأيام
وبأهلى بدلت عكا ولخما وجذاما وأين منى جذام
وتبدلت من مساكن قومى والقصور التى بها الآطام
كل قصر مشيد ذى أواسى يتغنى على ذراه الحمام
أقطع الليل كله باكتئاب وزفير فما أكاد أنام
نحو قومى إذ فرقت بيننا الدا ر وحادت عن قصدها الأحلام
خشية أن يصيبهم عنت الد هر وحرب يشيب منها الغلام
فلقد حان أن يكون لهذا الد هر عنا تباعد وانصرام[1]

فلما سمع ابن الزبير هذه الأبيات قال : أحسن والله أبو قطيفة وعليه السلام ورحمة الله وبركاته من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع ، فأخبر بذلك فانكفأ إلى المدينة فلم يصل إليها حتى مات .

وقد نعى أيمن بن خريم الأسدى خروج بنى أمية من المدينة وتحسر عليهم وترحم على منازلهم من مثل قوله :

كأن بنى أمية يوم راحوا وعرى عن منازلهم صدار
شماريخ الجبال إذا تردت بزينتها وجادتها القطار[2]

وقد أقام بنو أمية بذى خشب عشرة أيام ، وسرحوا حبيب بن كره إلى يزيد فى دمشق فأخبره الخبر فاغتاظ يزيد وسخر من إذعان بنى أمية وعجزهم عن المقاومة ، ولكن حبيباً أنبأه بأن الناس كثروهم فلم يكن لهم بهم طاقة ، حينئذ نهض يزيد يندب الناس حتى اجتمع منهم اثنا عشر ألفا جلهم من كلب أمر عليهم صخر بن أبى الجهم القينى ولكنه مات قبل أن يخرج الجيش[3] .

ويذكر أن كثيرين من القادة تحاشوا القيام بهذه المهمة من مثل عمرو بن

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٤ .
(٢) الأغانى جـ ١ ص ١٥ .
(٣) الأغانى جـ ١ ص ١٣ .

سعيد وابن زياد [١] وأخيرا نهض بهذه المهمة مسلمة بن عقبة المرى الذى زعم ليزيد أنه رأى رؤيا صاح به فيها صائح أنه صاحبها حتى يدرك ثأر بنى أمية من أهل المدينة قتلة عثمان [٢] .

والتقى مسلم ببنى أمية المطرودين من المدينة عند وادى القرى فدلوه على عورات المدينة ، ودخلها مسلم فأمهل أهلها ثلاثة أيام ثم سألهم عما اعتزموه فأبدوا إصرارهم على القتال وكانوا قد خندقوا واستعدوا وظهر بين أهل الشام تحرج فى قتال إخوانهم من المسلمين ، ولكن مسلما أثارهم ودفعهم إلى الانقضاض عليهم حتى تمكّن أن ينزل بأهل المدينة هزيمة نكراء وأباح ، على أثر ذلك ، المدينة ثلاثة أيام وأنزل بأهلها من أعمال العنف والقسوة والتنكيل والنهب والإحراق والاعتداء ما استحق بسببه أن يلقب بالمسرف ؛ وتذكر الروايات أن المدينة فقدت فى هذه الوقعة ثمانين من أصحاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — حتى لم يبق بها بدرى ، كما فقدت سبعمائة من قريش والأنصار وعشرة آلاف من سائر العرب وقد انبرى مسلم يدعو الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خَوَلٌ له يحكم فى دمائهم وأموالهم كيف شاء ومن امتنع عن ذلك قتله [٣] .

وقد تركت هذه الوقعة التى عرفت باسم وقعة الحرة ، أثرا عميقا فى نفوس الناس وبخاصة فيمن كان لهم هوى فى عبد الله بن الزبير أو من أصيب أهلهم وأقاربهم فيها ، ويظهر هذا الأثر فى تلك الأبيات التى رثى فيها عبيد الله بن قيس الرقيات ضحاياها وتفجع عليهم ويذهب بعض الدارسين إلى أنها صنعت لتنوح بها النائحات [٤] يقول عبيد الله بن قيس :

ذهب الصبا وتركت غيتيّه ورأى الغوانى شيب لمتيّه
وهجرننى وهجرتهن وقد عنت كرائمها يطفن بيه

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٤٨ ، الفخرى ص ١٠١ .
(٢) الأغانى ج ١ ص ١٣ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٢ ، ابن الاثير ج ٤ ص ٥١ .
(٤) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٥٤ .

إذ لمتى سوداء ليس بها وضح ولم أفجع بأخوتيه
الحاملين لواء قومهم والذائدين وراء عورتيه
إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنى وقرعن مروتيه
وجبينى جبّ السنام فلم يتركن ريشا فى مناكبيه
وأتى كتاب من يزيد وقد شد الحزام بسرج بغلتيه
ينعى بنى عبد وإخوتهم حل الهلاك على أقاربيه
ونعى أسامة لى وإخوته فظللت مستكا مسامعيه
كالشارب النشوان قطّره سمل الزقاق تفيض عبرتيه
سدما يعزينى الصحيح وقد مر المنون على كريمتيه
كيف الرقاد وكلما هجعت عينى ألم خيال أخوتيه
تبكى لهم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيتيه
والله أبرح فى مقدمة أهدى الجيوش علىّ شكتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوقّ نسوتهم بنسوتيه (١)

وواضح أن أقارب لعبيد الله كانوا من قتلى الحرة وأنه يهدد فى آخر الأبيات بأن يهدى الجيوش إلى بنى أمية حتى تفجعهم بإخوتهم ويسوق نسوتهم بنسوته .

وقد أصبح واضحا للعيان بعد وقعة الحرة التى اتسعت بها الجروح فى الحجاز أن بنى أمية وإن كانوا قرشيين فإنهم إنما يحكمون بالسيف وبسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وأنهم أداروا ظهرهم للحجاز وجعلوا حاضرة الشام قصبة لخلافتهم التى تلقفها بعضهم عن بعض دون سلطان شرعى وإنما بسلطان السيف والقوة إذ لولا ذلك ما ولى الخلافة أموى من أبناء الطلقاء ، فبين أبناء الصحابة من يفضلونه بسابقة آبائهم فى الإسلام وبسيرتهم الفاضلة ، فضلا عن أن يكون رجلا كيزيد بمجونه وفسقه ، ولولا هذا ما استباحوا مدينة الرسول وحكموا قبائل الشام فى رقاب أهل الحجاز .

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .

واتجه الجيش الذى نكب المدينة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، ولكن قائده شعر بدنو أجله فى الطريق ، فاستخلف على الجيش الحصين بن نمير ، وكان ابن الزبير قد تجهز وتحصن فى الكعبة وأحكم الدفاع عن مكة ، وكان السخط قد شمل المسلمين جميعا بعد وقعة الحرة مما حدا بجماعات متباينة إلى أن تهب لتزود عن الكعبة جنبا إلى جنب مع ابن الزبير ، فقدم إليها كثير من العرب من بينهم أولئك الذين نجوا من الحرة ، وبعض الخوارج كما أن نجاشى الحبشة أرسل جماعة من الأحباش للذود عن البيت الحرام الذى ضرب جيش الشام حوله حصارا شديدا ، واستمر القتال أياما من المحرم وشهر صفر كله إلى أن مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ فرمى الحصين بن نمير بيت الله الحرام بالمجانيق وحرقه أهل الشام بالنار وفى ذلك يقول أبو حرّة المدينى :

ابن نمير بئس ما تولّى قد أحرق المقام والمصلى[١]

وكان أهل الشام يرتجزون بقولهم :

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمى بها أعواد هذا المسجد[٢]

غير أن الأنباء جاءت بوفاة يزيد فرفع الحصار ، ودارت مفاوضات بين ابن الزبير وقائد جيش الشام لم تسفر عن شىء ، وقد عرض الحصين على ابن الزبير أن يبايع له بالخلافة إذا ما خرج معه إلى الشام ، ولكنه أبى أن يتخلى عن الحجاز .

وقد خلف يزيد ابنه معاوية وكان حدثا زاهدا يرى أن جده اغتصب الخلافة دون حق فخلع نفسه منها ولم يعهد ، وما لبث أن توفى بعد أيام ، وقد بدا وقتذاك أن حكم بنى أمية قد انتهى حتى ليقول ابن عرادة فى خراسان .

---

(١) الطبرى ٧ ص ١٠٢ ، أخبار مكة للأزرقى ص ٣٧ .
(٢) الطبرى جـ ٧ ١٠٤ .

أبنى أمية إن آخر ملككم جسد بحوارّين ثمّ مقيم
طرقت منيته وعند وسادة كوب وزق راعف مرثوم
ومرنةٌ تبكى على نشوانة بالصنج تقعد تارة وتقوم[١]

وقد أشعر معاوية بن يزيد بنى أمية بحرج موقفهم ثم توفى دون أن يعهد فخشوا أن ينتهز ابن الزبير الفرصة لتحقيق أهدافه .

وقد بدا آنذاك كأن الزبير هو القرشى الذى اختير للجماعة فأبوه من كبار الصحابة المقدمين وأمه أسماء بنت أبى بكر وأخت عائشة زوج الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو فضلا عن ذلك من وجوه المسلمين الأتقياء الذين جاهدوا فى سبيل الله وأبلوا فى الفتوحات بلاء حسنا .

وقد ساعدت الظروف ابن الزبير واتسعت الدعوة له فى الحجاز واليمن ومصر وسرعان ما ظاهرته قيس فى الشام والجزيرة وتبعته خراسان بقيادة عبد الله بن خازم السلمى القيسى ، وقد وجدت قيس فى ابن الزبير أملا قرشيًّا يرجح كفتها على كفة اليمنية التى اعتمد عليها بنو سفيان فى إقامة ملكهم هربا من أطماع النزارية .

وكانت كلب اليمنية الضاربة فى دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام أولى القبائل التى استظهر بها معاوية فى قتال علىّ وأعوانه المضريين ، ثم أصهر إليهم بزواجه من ميسون بنت بحدل أم يزيد ، فلم يترددوا فى مناصرته للصهر ولأن نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان كانت منهم فهبوا معه يطالبون بدم عثمان وقد أغدق عليهم معاوية ، واختصهم بالعطاء إلى أن عزت اليمن وغلبت مضر حتى إن الروايات تذكر أن رجلا يمنيًّا قال لقد هممت ألا أدع بالشام أحداً من مضر ، بل هممت ألا أحل حبوتى حتى أخرج كل نزارى بالشام[٢] .

ويجب أن نلاحظ أن عداء قيس وكلب كان أقدم عهداً من ذلك وأنه

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ١٠٦ .
(٢) الأغانى جـ ١٨ ٧٠ .

يرجع إلى الفترة التى نزح فيها كثير من عشائر قيس وبطونها وبخاصة من كلاب وعامر وسليم إلى الشمال حيث زاحمت قبيلة كلب فى الشام وتغلب فى الجزيرة ، ونتج عن ذلك اصطدام المصالح الاقتصادية فى الرعى وغيره ثم أرث الأمويون هذا العداء بتوليهم لكلب وتغلب فاصطدمت المصالح السياسية أيضا ، فكان طبيعياً أن تقف فى الصفوف المعادية حين تواتيها الفرصة .

وقد سنحت الفرصة حين بدا انهيار بنى أمية بوفاة معاوية بن يزيد ، ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، فسرعان ما حطبت قيس فى حبله وظاهرته معلنة الثورة على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس فى الشام وزفر بن الحارث الكلابى فى قرقيسيا بالجزيرة .

وكادت الأمصار الإسلامية كلها فى تلك الفترة تكون تابعة لابن الزبير فقد أسلم له الحجاز قياده ، ولم يشذ عن البيعة له فيه غير محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وطرد أهل البصرة عبيد الله بن زياد وأجابوا سلمة بن حنظلة التميمى إلى بيعة ابن الزبير واختار أهل الكوفة عامر بن مسعود واليا ، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره عليهم وبايع أهل مصر لابن الزبير فأرسل إليهم عبد الرحمن ابن عتبة بن جحدم الفهرى واليا وأعلنت بلاد اليمن وخراسان والجزيرة طاعتها لابن الزبير ، وكذلك نجح الضحاك بن قيس الفهرى فى أن يبسط نفوذ ابن الزبير على الشام كله ما عدا الأردن الذى كان الإقليم الوحيد المخلص لبنى أمية نظرا لوجود حسان بن مالك بن بحدل الكلبى خال يزيد بن معاوية والذى كان عاملا لمعاوية ويزيد عليها ، فقاد حركة المعارضة ضد ابن الزبير من هنالك ، وكان حسان قد استخلف روح بن زنباع على فلسطين فطرده منها ناتل بن قيس فبايعه أهلها لابن الزبير ، وكذلك وثبت قيس بسعيد بن حسان فى قنسرين وطردته منها بقيادة زفر بن الحارث الكلابى .

وقد بدا حينئذ أن الأمر قد أوشك أن يصير إلى ابن الزبير حتى لقد همّ مروان ابن الحكم شيخ بنى أمية بأن يبايعه لولا أن منعه عبيد الله بن زياد ، ونصحه بالتروى وعلى الرغم من أن المعارضة الوحيدة التى كان يلقاها ابن الزبير لم تتجاوز إقليما واحداً هو الأردن الذى استجاب أهله لحسان بن مالك فإن الأمر فى حقيقته

كان صراعاً ضارياً بين القيسية والكلبية حتى أصبح أمر الخلافة رهنا بما يتمخض عنه هذا الصراع .

وكان واضحا أن موقف قيس أقوى من موقف خصومها ، فموقفها هو موقف الأمصار الإسلامية جميعها فيما عدا الأردن بينما كانت منقسمة على نفسها ، فقوم منهم يدعون لخالد بن يزيد وقوم يدعون لمروان بن الحكم .

ورأى الأمويون أن يعقدوا مؤتمرا فى الجابية لبحث هذا الخلاف بناء على مشورة الحصين بن نمير ، وقد انتهى المؤتمر بالاتفاق على مبايعة مروان بن الحكم على أن تكون الخلافة من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص .

ويبدو أن النجاح الذى حالف الضحاك بن قيس قد أغراه بأن يحوّل الدعوة عن ابن الزبير إلى نفسه ، وقد زعمت بعض الروايات أن الأمويين دسوا إليه ابن زياد فزين له ذلك وأوحى إليه بشهود مؤتمر الجابية حتى يكون له فى الأمر شىء (١) .

ويبدو أنها كانت خطة محكمة فقد انتهز ذلك أحد قادة الأمويين فهجم على دمشق وأخرج عامل الضحاك منها ، واحتوى بيت مالها وأمد به مروان ليجهز به الرجال ويعد به لمعركة فاصلة ، وقد كان لموقف الضحاك أثر فى القضاء على مكانته فى قلوب الكثيرين من أنصاره .

ودارت معركة راهط التى استمرت عشرين يوما ، وأوقعت فيها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة بقيس ، وقتل الضحاك وهرب زفر بن الحارث الكلابى من قنسرين حتى دخل قرقيسيا وهو يبكى قتلى مرج راهط ويعلن إصراره على الثأر معتذرا عن فراره فى قوله :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط ... لمروان صدعا بيننا متنائيا
أرينى سلاحى لا أبالك إننى ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب إنه ... مقيد دمى أو قاطع من لسانيا

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١١ .

فى العيش منجاة وفى الأرض مهرب ... إذا نحن رفّعنا لهن المثانيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هى ما هيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط ... لحسان صدعا بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا ... ومقتل همام أمنى الأمانيا
فلم تر منى نبوة قبل هذه ... فرارى وتركى صاحبىّ ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا يرى ... من الناس إلا من علىّ ولا ليّا
أيذهب يوم واحد إن أسأته ... بصالح أيامى وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألاليت شعرى هل تصيبنّ غارتى ... تنوخا وحىّ طىء من شفائيا

فرد عليه عمرو بن مخلاة الحمار الكلبى بقوله :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط ... على زفر داء من الداء باقيا
تبكى على قتلى سليم وعامر ... وذبيان مغرورا وتبكى البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى ... سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة ... إذا شرعوا نحو الطعان العواليا[1]

وقد تخلف عن وقعة مرج راهط شعر كثير حاول فيه كل من الفريقين أن يعبر عن موقفه فقد ذهب شعر القيسيين فى التمسك بطاعة ابن الزبير والإشادة بعصبيتهم والإصرار على الانتقام من خصومهم ، ورثاء قتلاهم وقد صور نفر ابن الحارث الكلابى كبير قيس قسوة المعركة تصويراً قدر فيه شجاعة خصومه وصبرهم على القتال فى صدق الفارس النبيل إذ يقول :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... ليالى لاقينا جذام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

(١) الطبرى ج ٦ ص ٤١ .

ولما لقينا عصبة تغلبية يقودون جردا للمنية ضمرا
سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا[١]

ولكنه استنكر الهزيمة وزوال نفوذ ابن الزبير ، وما كان من ارتفاع شأو اليمنية بقيادة حسان بن مالك بن بحدل وتوعد خصومه بيوم فاصل فى قوله :

أفى الله أما بحدل وابن بحدل فيحيا ، وأما ابن الزبير فيقتل
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ولما يكن يوم أغر محجل
ولما يكن للمشرفية فوقكم شعاع كقرن الشمس حين ترحل[٢]

وقد أخذ شعراء كلب وأحلافهم يفخرون بما تحقق لهم من النصر على القيسية ويشيدون ببلائهم وبسالتهم وإيقاعهم برجال قيس من مثل قول عمرو بن المخلاة الكلبى :

ويوم ترى الرايات فيه كأنها حوائم طير مستديد وواقع
أصابت رماح القوم بشرا وثابتا وحرنا وكل للعشيرة فاجع
طعنا زيادا فى استه وهو مدبر وثورا أصابته السيوف القواطع
وأدرك هماما بأبيض صارم فتى من بنى عمرو طوال مشايع
وقد شهد الصفين عمرو بن محرز فضاق عليه المرج والمرج واسع
فمن يك قد لاقى من المرج غبطة فكان لقيس فيه خاص وجادع[٣]

وعمرو هنا فخور جذلان بما أنزله قومه بوجوه قيس من مثل بشر بن يزيد المرى ، وثابت بن خويلد البجلى وزياد بن عمرو العقيلى وعمرو بن محرز الأشجعى وكل منهم رئيس عشيرة من قيس .

وقد ظلت كلب وأحلافها تفخر بهذا اليوم فخرا عالى الصوت حتى إنها فخرت على بنى أمية أنفسهم ، ومنت عليهم ذبها عن ملكهم ضد قيس كما فعل عمرو بن مخلاة الحمار الكلبى فى قوله :

---

(١) شرح التبريزى للحماسة جـ ١ ص ٤١ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤٢ ، شرح التبريزى للحماسة جـ ١ ص ٢٦٣ .
(٣) شرح التبريزى للحماسة جـ ١ ص ٢٦٢ .

ضربنا لكم عن منبر الملك أهله ... يجيرون إذ لا تستطيعون منبرا
وأيام صدق كلها قد عرفتم ... نصرنا ويوم المرج نصرا مؤزرا
فلا تكفروا حسنى مضت من بلائنا ... ولا تمنحونا بعد لين تجبرا
فكم من أمير قبل مروان وابنه ... كشفنا غطاء الغم عنه فأبصرا
ومتسلم نفّسن عنه وقد بدت ... نواجذه حتى أهلّ وكبّرا
إذا افتخر القيسى فاذكر بلاءه ... بزراعة الضحاك شرقى جوبرا
فما كان فى قيس من ابن حفيظة ... يعد ولكن كلهم نهب أشقرا[1]

ونجد نفس هذه النغمة العالية عند أكثر من شاعر كلبى ، مما يدل على نزوع اليمنية إلى التسلط على الدولة لقاء ما قدمت لها من مؤازرة أمام قيس حتى استبرئت الشام لبنى أمية الغرباء عليه كما زعم جواس بن القعطل الكلبى :

صبغت أمية بالدماء رماحنا ... وطوت أميـــة دوننا دنياها
أأمىّ رب كتيبة مجهولة ... صيد الكماة عليكم دعواها
كنا ولاة طعانها وحرابها ... حتى تجلت عنكم غماها
فالله يجزى — لا أمية — سعينا ... وعُلا شددنا بالرماح عراها
جئتم من الحجز البعيد نياطه ... والشـــام تنكر كهلها وفتاها
إذ أقبلت قيس كأن عيونها ... حدق الكلاب وأظهرت سيماها[2]

وبهزيمة قيس فى مرج راهط خلا وجه الشام لمروان بن الحكم وتمت له البيعة فيه ، وتحولت الخلافة من بيت السفيانيين إلى المروانيين . ولكن الموقف عاد شبيها بما كان عليه الأمر بعد مقتل عثمان إذ وقفت الشام وحدها أمام الأمصار الإسلامية مجتمعة ونجح مروان فى أن ينتزع مصر من طاعة ابن الزبير ، وأن يولى أخاه عبد العزيز عليها .

وفى هذه الأثناء أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا على رأس حملة إلى فلسطين فى محاولة لإعادة نفوذه إليها فوجه إليه مروان بجيش بقيادة عمرو ابن سعيد بن العاص أعاده على أعقابه ، كما وجه مروان بجيش إلى العراق

---

(١) شرح التبريزى للحماسة / ج ٢ / ص ٢١٢ .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ج ٢ / ص ٢١٦ .

بقيادة عبيد الله بن زياد على أن يؤدب فى طريقه زفر بن الحارث ومن تبعه من القيسيين فى قرقيسيا ، وكان عمير بن الحباب السلمى قد انضم إليه وأخذ يغير غارات كثيرة على كلب فى أيام متعاقبة مثل يوم الغوير ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان[1] ووالت قيس غاراتها على تغلب ونكل عمير بن الحباب بها فى غير موقعة وبخاصة يوم ماكسين الذى أسر فيه القطامى فلما عرفه زفر أعطاه مائة من الإبل مما جعله ينوه به طويلا فى شعره[2].

وفى قرقيسيا جاءت ابن زياد الأنباء بوفاة مروان وتولية عبد الملك ، وأقره عبد الملك على ما ولاه أبوه فمضى ابن زياد فاشتغل بقتال القيسية نحوا من عام خرج أثناءه التوابون بزعامة سليمان بن صرد وتلقاهم الحصين بن نمير فى عين الوردة حيث حدثت مقتلة الشيعة وتم الصلح بين ابن زياد وزفر ، وسار فى طريقه إلى العراق ومعه حليفه القيسى عمير بن الحباب ، وفى هذه الأثناء وثب المختار الثقفى بالكوفة وتولى قيادة فلول التوابين ورفع شعار الثأر للحسين ، وبعد أن نجح ابن زياد فى هزيمة جيش للمختار انهزم أمام جيش آخر بقيادة إبراهيم ابن الأشتر ، وقتل ابن زياد فى هذه الوقعة المعروفة بخازر سنة ٦٧ هـ وكان من أسباب الهزيمة خيانة القيسيين بزعامة عمير بن الحباب إذ انضموا أثناء القتال إلى صف العدو انتقامًا من ابن زياد .

وكفى المختار بذلك ابن الزبير مئونة لقاء الجيش الأموى ، وكان لانتصار ابن الأشتر على عبيد الله وهزيمته ومقتله صدى فرح وابتهاج فى شعر الزبيريين يمثله قول سراقة بن مرادس البارقى عقب المعركة إذ يقول :

أتاكم غلام من عرانين مذحج ... جرىء على الأعداء غير نكول
فيا ابن زياد بؤ بأعظم مالك ... وذق حد ماضى الشفرتين صقيل
ضربناك بالعضب الحسام بحده ... إذا ما أبأنا قاتلا بقتيل
جزى الله خيرا شرطة الله إنهم ... شفوا من عبيد الله أمس غليلى[3]

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٢١ .
(٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٢٨ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٤٦ .

وقد احتاج عبد الملك بعد هزيمة ابن زياد إلى أن يؤجل إخضاع العراق ، إلى أن ينتهى الصراع بين ابن الزبير والمختار الثقفى وبخاصة أنه شغل عنهما بتمرد ناتل بن قيس بإيعاز من ابن الزبير فى فلسطين ، وبخرق الروم للهدنة بالقحط الذى حل فى هذه الفترة بالشام .

وكان المختار قد نجح فى دعم نفوذه بين الشيعة فارتفعت أسهمه فى الكوفة بوصفه نصير بن هاشم وتمكن من طرد عامل ابن الزبير منها وأغدق على أهل العراق واستمال عمال ابن الزبير بالرشى وأفاد من أضرار ابن الزبير بابن الحنفية الذى تولاه وتوج انتصاراته بالثأر للحسين من قاتليه فى موقعة خازر .

وبقدر ما كان انتصار المختار على الجيش الأموى فى خازر كسبا لابن الزبير فإنه كان فى نفس الوقت نذير خطر بات يتهدد نفوذه فى العراق وأصبح الصدام بين الزبيريين وحركة المختار قدرا محتوما .

وقد انبرى شعراء الزبيريين يهاجمون حركة المختار ، ويقذفونها بالخداع ويصفونها بالضلال والشعوذة متعرضين بالهجاء لمخاريق المختار التى ادعاها وموه بها مثل اتخاذه الحمام والكرسى وزعمه أنه بمنزلة التابوت عند اليهود وغير ذلك من أساليب التأثير على العامة .

وقد تهكم به أعشى همدان ، وأعلن توليه لعبد الله بن الزبير فى قوله :

شهدت عليكم أنكم سبئية ... وأنى بكم يا شرطة الشرك عارف
وأقسم ما كرسيكم بسكينة ... وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وإن ليس كالتابوت فينا وإن سعت ... شبام حواليه ونهد وخارف
وإنى امرؤ أحببت آل محمد ... وتابعت وحيا ضمنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تتابعت ... عليه قريش شمطها والغطارف[1]

واستطاع مصعب أن يستغل الخلاف بين المختار وأشراف الكوفة الذين لجأوا إليه وحالفوه ضد المختار ، فقاد جيشا ضخما واتجه به إلى الكوفة حيث

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٤١ .

دارت فى حروراء معركة ضارية وفاصلة بين الأرستقراطية القرشية والحركة المختارية انتهت بمقتل المختار ودخول الكوفة فى طاعة ابن الزبير من جديد . وبسقوط المختار أصبح ابن الزبير وجهاً لوجه أمام الأمويين .

وكان عبد الملك قد تمكن أثناء فترة الصراع بين المختار والزبيريين أن يعالج المشكلات التى عرضت له وأن يعد نفسه للقاء الزبيريين لقاء فاصلا ، مدركا أنهم خرجوا من صراعهم مع المختار منهوكى القوى.

وقد حدث فى هذه الأثناء أن مصعبا بعد انتصاره على المختار تزوج بسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وأمهر كل واحدة منهما ألف درهم فكتب أنس بين زنيم الليثى إلى عبد الله بن الزبير :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل ... وتبيت قادات الجيوش جياعا
لولا أبى حفص أقول مقالتى ... وأبث ما أبثثتكم لا رتاعا[1]

فلما وصلت الأبيات إلى عبد الله جزع وعزله ودعا ابنه حمزة فولاه مكانه ، ولكن حمزة لم يكن كفئا لهذا المنصب فى تلك الظروف العصيبة التى تربص فيها عبد الملك بالعراق فقد كان حدثا غرًّا مخلطا جوادا إلى حد السفه ، وقد وفد عليه كثير من الشعراء فمدحوه ونالوا عطاءه من مثل موسى شهوات الذى يقول فيه :

حمزة المبتاع بالمال الثنا ... ويرى فى بيعه أن قد غبن
فهو إن أعطى عطاء فاضلا ... ذا إخاء لم يكدره بمن
وإذا ما سنة مجحفة ... برت الناس كبرى بالسفن
حسرت عنه نقيا عرضه ... ذا بلاء عند مخناها حسن
نور صدق بيّن فى وجهه ... لم يدنس ثوبه لون الدرن
كنت للناس ربيعا مغدقا ... ساقط الأكناف إن راح أرجحن[2]

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١١٩ .
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ١١٧ .

وقد ظهر تخليط حمزة وجهله بالبصرة ، وتذكر الروايات أطرافا كثيرة من سيرة الحمق التى سارها فى حكمه ، من ذلك أنه زار يوما فيض البصرة ، فلما رآه استقله ثم زاره بعد ذلك فوافاه جازرا فعجب لذلك ، حتى أفهمه الأحنف أنه يفيض ثم يعود ، وتهكم به بعض الشعراء وبجهله أمر الماء الجازر فى قوله :

يا ابن الزبير بعثت حمزة عاملا ... يا ليت حمزة كان خلف عمان
أزرى بدجلة حين عب عبابها ... وتقاذفت بزواخر الطوفان[1]

واستمر حمزة فى سيرته تلك ، وخاط تخليطا شديدا حتى وفدت إلى أبيه الوفود فى أمره ، وكتب إليه الأحنف بأمره وبما ينكره الناس منه ، وبخشيته أن تفسد عليه طاعتهم ، وكتب إليه عبد العزيز بن شبيب إذا كان لك بالبصرة حاجة فاصرف ابنك عنها وأعد إليها مصعبا[2] .

ولم يجد عبد الله بدًّا من إعادة مصعب ولكنه كان قد خسر كثيرا خلال تلك الفترة القصيرة إذ وجد عبد الملك فى ولاية حمزة فرصته للاتصال بقواد الزبيريين واستمالتهم. وأخذ يعد من ثم للقضاء على سلطانهم نهائيًّا فى العراق فخرج فعسكر فى بطنان حبيب من أعمال قنسرين سنة ٦٩ / ٧٠ هـ . وخرج مصعب فعسكر له فى باجميرا عند تكريت . إلا أن عمرو بن سعيد بن العاصى وثب فى هذه الأثناء بدمشق مطالبا بحقه فى الخلافة الذى كفله له مؤتمر الجابية فاضطر عبد الملك إلى أن يعود أدراجه حيث قضى على تمرده ، ثم عاود الكرة فى العام التالى ٧٠ / ٧١ هـ فنزل بطنان حبيب ولكنه تردد فى ملاقاة مصعب ، وكأنه لم يكن قد استوثق بعد من استمالة قواده تماما واكتفى بإهاجة قبائل كلب وربيعة ضد مصعب فى بعض نواحى البصرة ، مما حدا بمصعب أن يترك معسكره فى باجميرا ليخمد هذا التمرد ، ثم عاد سريعا فعسكر فى باجميرا من جديد .

وقد صور الشعر تردد عبد الملك فى النهوض لمصعب وأخذ عليه إمهاله له ، وأجمع شعراء الأمويين فى هذه الفترة على تحريض عبد الملك على الزبيريين

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٢٠ .
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ١١٩ .

والتعجيل بالقضاء على سلطانهم من مثل أعشى ربيعة الذى رأى بنى الزبير غير أكفاء للنهوض بسلطان الخلافة لضعفهم وبخلهم ؛ فقال :

آل الزبير من الخلافة كالتى ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أوكالضعاف من الحمولة حملت ... مالا تطيق فحملت أحمالها
قوموا إليهم لاتناموا عنهم ... كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ... ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا ... فانهض بيمنك فافتتح أقفالها[1]

وكان أبوالعباس الأعمى الأموى يثير على الزبيريين أيضاً ، ويلوم على عبد الملك أنه أطمعهم وأمد لهم فى مثل قوله :

أبنى أمية لا أرى لكم ... شبها إذا ما التفت الشيع
سعة وأحلاما إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرها النزع
وحفيظة فى كل نائبة ... شهباء لا ينهى لها الربع
الله أعطاكم وإن رغمت ... من ذاك أنف معاشر رفعوا
أبنى أمية غير أنكم ... والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتم فيكم عدوكم ... فسما بهم فى ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم لقومكم ... مثل الذى كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لردهم ... حذر العقوبة إنها نزع[2]

وتروى الروايات أن عبد الملك لما هم بالخروج إلى مصعب لاذت به زوجه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وتمنت عليه ألا يخرج لحرب مصعب وقد ذكر آل الزبير خروجه ، وبكت وبكى جواريها معها . فجلس عبد الملك فقال : قاتل الله ابن أبى جمعة — يعنى كثيرا — فأين قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه ... بكت فبكى مما شجاها قطينها[3]

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٦٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ٥٩ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ .

وقبل أن يتقدم عبد الملك لقتال مصعب رأى أن يستبرئ الجزيرة ليؤمن طريقه إلى العراق حيث ظلت قيس هناك توالى غاراتها على حلفائه ، وبخاصة تغلب بعد أن قتلت عمير بن الحباب فى إحدى غاراته عليها بالحشاك إلى جانب نهر الثرثار سنة ٧٠ هـ .

وكان زفر بن الحارث الكلابى قد ثأر لعمير وقتل فى بنى كعب بن زهير مقتلة عظيمة وأوقع ببنى فدوكس وقتل رجالهم واستباح أموالهم ، حتى همت تغلب واليمن بالرحيل يريدون عبور دجلة فلحق بهم زفر بالكحيل جنوبى الموصل حيث فتك بهم فتكا ذريعاً فقتل رجالهم وبقر نساءهم وغرق فى دجلة أكثر ممن قتل بالسيف وكان الدم فى دجلة قريبا من رمية سهم ، وظلت المعركة طوال الليل حتى أصبحوا فوجه زفر ابنه الهذيل وبتميم بن عمير بن الحباب فى جماعة وأمرهم بألا يلقوا أحدا إلا قتلوه ، ومضى زفر إلى رأس الأثيل حيث وجد عسكرا من اليمن وتغلب فقاتلهم بقية ليلتهم حتى هربت تغلب ، وتسمى تغلب هذه الليلة بليلة الهرير ، وحق لزفر أن يفخر بصنعه وبثأره لعمير فى قوله :

ولما أن نعى الناعى عميرا ... حسبت سماءهم دهيت بليل
وكان النجم يطلع فى قتام ... وخاف الذل من يمنى سهيل
وكنت قبيلها يا أم عمرو ... أرجل لمتى وأجر ذيلى
فلو نبش المقابر عن عمير ... فيخبر عن بلاء أبى الهذيل
غداة يقارع الأبطال حتى ... جرى منهم دما مرج الكحيل
قبيل ينهدون إلى قبيل ... تساقى الموت كيلا بعد كيل (١)

وقد قضى عبد الملك فى الجزيرة شهورا ، وحاصر زفر فى قرقيسيا ونجح أخيرا فى استمالته إليه ، وضم ابنه الهذيل إلى جيشه ، وتم له إخضاع نصيبين وعين الوردة وكانت فلول الخشبية من أتباع المختار لا يزالون يدافعون فيها عما بأيديهم ، فاستسلموا واندمجوا فى جيشه ليثأروا من الزبيريين (٢) .

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٥٦ .
(٢) الأغانى جـ ٥ ص ١٥٠ .

ولما أصبح طريقه آمنا نزل عبد الملك بمسكن ، وزحف مصعب من باجميرا إلى دير الجاثليق فوافاه هناك عبد الملك ،وحينئذ اكتشف مصعب ، وقبل أن تبدأ المعركة ،خيانة قواده ، ولم يستجب لابن الأشتر فى قتلهم أو حبسهم عن الاشتراك فى المعركة ، واضطر إلى أن يخوض معركة يعرف نتيجتها مقدما بعد أن خانه قواده ، وغاب عنه المهلب لاشتغاله بحرب الأزارقة ولوفاة الأحنف ابن قيس فى الكوفة وهو فى طريقه إليه .

ودارت فى دير الجاثليق معركة فاصلة قتل فيها إبراهيم بن الأشتر ودارت فيها الدائرة على جيش الزبيريين وصمد مصعب إلى النهاية ورفض ابنه عيسى أن يتخلى عنه ، فظل يقاتل وأبوه وأصحابهما يتفرقون عنهما ويخذلونهما حتى بقى مصعب فى سبعة رجال مثخنين بالرمى وكثرت فيه الجراحات حتى لم يعد قادرا على الدفاع عن نفسه ، فطعنه رجل ، ذكر ابن الأثير أنه زائدة بن قدامة الثقفى وأنه صاح به وهو يطعنه : يا لثارات المختار[1] . ولكن أبا الفرج يذكر أن ذلك الرجل هو عبيد الله بن زياد بن ظبيان وأن الشاعر عبد الله بن الزبير الأسدى وكان صديقا لمصعب اكتشف ذلك فهجاه بقوله :

أبا مطر شلت يمين تقرعت بسيفك رأس ابن الحوارى مصعب[2]

وبعد هذا النصر الرخيص دخل عبد الملك الكوفة ، فبايعه أهلها وولى عمالا من قبله على العراقيين . وكان صدى هزيمة مصعب قد تردد فى آفاق البلاد ، ولم ينجح عبد الله بن الزبير فى ستره على الرغم من تكتمه الشديد . فكان لذلك رنة أسى وحزن فى شعر الزبيريين ومن خير ما يمثل ذلك قول عبيد الله ابن قيس الرقيات فى هزيمة مصعب وتنديده بالقبائل التى تخلت عن نصرته فخذلته وباءت بالخزى والذلة واللوم :

لقد أورث المصرين خزيا وذلة قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما نصحت لله بكر بن وائل ولا صبرت عند اللقاء تميم

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٣٧ .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٣٦ .

ولو كان بكريًّا تعطف حوله كتائب يغلى حميها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن بها مضرى يوم ذاك كريم
جزى الله كوفيا هناك ملامة وبصريهم أن المليم مليم
وإن بنى العلات أخلوا ظهورنا ونحن صريح بينهم وصميم
فإن تفن لا يبقوا أولئك بعدنا لذى حرمة فى المسلمين حريم[1]

وبطبيعة الحال كان لهزيمة دير الجاثليق رنة فرح فى شعر الأمويين ، فبمقتل مصعب فيها آذنت شمس الخلافة الزبيرية بمغيب ، وقد ابتهج بذلك شعراء بنى أمية وفخروا به من مثل قول عدى بن الرقاع العاملى :

لعمرى لقد أصحرت خيلنا بأكتاف دجلة للمصعب
يهزون كل طويل القنا ومعتدل النصل والثعلب
إذا ما منافق أهل العرا ق عوتب ثمت لم يعتب
دلفنا إليه لدى موقف قليل التفقد للغيب
فقد منا واضح وجهه كريم الضرائب والمنصب
أعين بنا ، ونصرنا به ومن ينصر الله لم يغلب[2]

وأصبح أمام عبد الملك أن ينهض لمعركة فاصلة مع الخلافة الزبيرية فى قصبتها ، فوجه بالحجاج بن يوسف الثقفى على رأس جيش لجب إلى الحجاز[3]

وبعد أن قضى الحجاج شهورا فى الطائف ناوش خلالها ابن الزبير فى سهل عرفه استأذن عبد الملك فى دخول الحرم على ابن الزبير واستمده فأمدّه بطارق ابن عمرو فى خمسة آلاف ، وتقدما معا فبلغا مكة فى ذى القعدة سنة ٧٢هـ والمسلمون يستعدون لأداء الفريضة فلم يتمكن أحد من الفريقين من الطواف أو السعى حتى إذا أوشك الموسم أن ينتهى قذف الحجاج الكعبة بالمجانيق ، ولكنه كف لما نهاه عبد الله بن عمر عن انتهاك البلد الحرام فى الشهر الحرام منتظرا انتهاء الموسم.

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ١٨٧ .
(٢) الطبرى جـ ٧ ص ١٨١ .
(٣) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠٢ .

ثم بدأ الحجاج يقذف الحجارة غير حافل بالرعد والبرق والصواعق ، وتكاثرت الحجارة على الكعبة حيث اعتصم ابن الزبير وأصحابه ؛ فرأى كثير منهم ألا طائل وراء المقاومة ، فطلبوا أمان الحجاج ، وبقى عبد الله فى عدد قليل ، وظلت الحرب دائرة وأصحابه يتفرقون عنه حتى خرج عامة أهل مكة إلى الحجاج فى الأمان وفيهم حمزة وحبيب ابنا عبد الله ، ولكن عبد الله أبى أن يقبل أمانا ناله له أخوه عروة ، وأحيط به واستمات فى المقاومة حتى أصابه حجر فى جبينه فتساقط عليه أهل الشام فصرعوه ، ثم صلبه الحجاج ليثير الرعب فى قلوب أنصاره ورفض رجاء أمه فى دفنه .

وقد كان لمقتل عبد الله وصلبه على هذه الصورة صدى حزين بين أهل الحجاز ، والقرشيين بخاصة ؛ وقد رثاه غير شاعر رثاء حارًّا مشيدين بشجاعته وصلاحه من مثل قول أحدهم :

نعى الناعى الزبير فقلت تنعى ... فتى أهل الحجاز وأهل نجد
خفيف الحاذ ، نسال الفيافى ... وعبدا للصحابة غير عبد[1]

وقد ندد الشعر الزبيرى بتخلى القبائل عن عبد الله ، وخذلانه من مثل قول جعفر بن الزبير وكان من أشد المخلصين ذبًّا عن أخيه حتى جمد الدم على يديه ، وهو يجالد أهل الشام :

لعمرك إنى يوم أجلت ركائبى ... لأطيب نفسا بالجلاد لدى الركن
ضنين بمن خلفى شحيح بطاعتى ... طراد رجال لا مطاردة الحصن
غداة تحامتنا بخيت وغافق ... وهمدان تبكى من مطاردة الضبن[2]

وكان الحجاج قد بعث برأس عبد الله إلى عبد الملك فجلس إلى سريره ، وأذن للناس فدخلوا عليه ، فقام عبد الله بن الزَّبير الأسدى فاستأذنه فى الكلام ، فقال :

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ٤٠٧ .
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ١٠١ .

مشى ابن الزبير القهقرى فتقدمت أمية حتى أحرزوا القصبات
وجئت المعلى يا بن مروان سابقاً أمام قريش تنفض العذرات
فلا زلت سباقاً إلى كل غاية إلى المجد نجاء من الغمرات

فقال عبد الملك : كيف قلت أبياتك فى المحل ، وفى الحجاج ، فأنشده :

كأنى بعبد الله يركب درعه وفيه سنان زاعبى محرّب
وقد فر عنه الملحدون وحلقت به وبمن أسناه عنقاء مغرب
تولوا فخلوه فشال بشلوه طويل من الأجذاع عار مشذّب
بكفّى غلام من ثقيف نمت به قريش وذو المجد التليد معتّب

فقال له عبد الملك : لا تقل غلام ، ولكن قل همام [1] . ويبدو أن الخيانة لعبت دوراً كبيراً فى هزيمة عبد الله ، وأن أصابع عبد الملك والحجاج هى التى خذلت الناس عنه ، فقد ذكر أبو الفرج أن قوماً من شيعة بنى أمية كانوا يتجسسون لعبد الملك فقتلهم عبد الله بن الزّبير فهجاه عبد الله بن الزبَير الأسدى منددا بما يزعمه أنه عائذ بالبيت فقال :

أيها العائذ فى مكة كم من دم أهرقته فى غير دم
أيدٌ عائذة مفصمة ويدٌ تقتل من حلّ الحرم ؟ [2]

وبنهاية عبد الله سقطت الخلافة الزّبيرية التى قامت لمدة تسعة أعوام ، وكانت منافساً خطيرا لسلطان الأمويين لاعتدادها بالقرشية وبالكفاءة وبالإسلام ، ولتمسكها بأرض الحجاز ومحاولتها استعادة العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من سيادة ولاعتصامها بالحرم ولياذها به ، ورفضها الخروج عنه إلى الشام ، وحقاً كان الزبيريون كابوسا مخيفاً بالنسبة للأمويين إذ نازعوهم ميراث قريش ، فكان فى الخلاص منهم راحة وطمأنينة عبر عنها نابغة بنى شيبان شاعر بنى أمية بقوله لعبد الملك :

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٤٢ .
(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٤٢ .

أزحت عنا آل الزبير ولو كانوا هم المالكين ما صلحوا
آل أبى العاص آل مأثرة غر عتاق بالخير قد نفحوا
خير قريش وهم أفاضلها فى الجد جد وإن هم مزحوا
أمّا قريش فأنت وارثها تكف من غربهم إذا طمحوا[1]

وكان للقضاءعلى عبدالله واجتماع الناس على عبد الملك أكبر الأثر فى استنقاذ تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية بينهما ؛ فعلى الرغم من أن عبد الملك حاول أن يصلح بينهما إلا أنه لم يحكم عقدة الصلح تماما.

وتصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الحجاف بن حكيم السلمى فسأله عبد الملك إن كان يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذى أقول فيه :

ألا سائل الحجاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أحجاف إن تهبط عليك فتلتقى عليك بحور طيبات الزواجر
تكن مثل أنداءالحباب الذى جرى به البحر تزهاه رياح الصراصر

وكان الأخطل يشير بذلك إلى قتل تغلب لعمير بن الحباب ، وكان الحجاف ممن فتكوا بتغلب تحت لوائه ، وقد فعل الغضب بالحجاف فعله ، والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فزع منها أجابه الحجاف :

نعم سوف نبكيهم بكل مهند ونبكى عميراً بالرماح الخواطر

ووثب يجر مطرفه ، وافتعل عهدا من عبد الملك على صدقات بكر وتغلب ، وقاد ألف فارس من قومه سار بهم حتى أتى الرصافة ؛ فكشف لهم أمره ، وأنشدهم قول الأخطل ، وأثار حفيظتهم على تغلب فتابعوه ؛ ونزل بهم وادياً لبنى تغلب يدعى البشر أغاروا عليه ليلا ، فقتلوا الرجال وبقروا النساء ؛ وكان بين القتلى ابن للأخطل ، كما وقع الأخطل نفسه فى الأسر غير أنه موه على بنى سليم فادعى أنه من عبيد تغلب فأطلقوه وهم لا يعرفونه ؛ ولما رأى الحجاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم خوفا منه ، ومكث زمناً

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٠٦ .

فيهم ، وقال فى ذلك :

فان تطردونى تطردونى وقد مضى ... من الورد يوم فى دماء الأراقم
لدن ذر قرن الشمس حتى تلبست ... ظلاماً بركض المقربات الصلادم[1]

ولما سكن غضب عبد الملك ، كلمته القيسية فى أن يؤمنه ، فلان وتلكأ ، فخُوف عبد الملك شره على المسلمين إن طال مقامه بأرض الروم ؛ فأمنه ، غير أنه ألزمه دفع ديات القتلى يوم البشر ، فلجأ إلى الحجاج فأداها له . فلما قدم على عبد الملك سأله أن ينشده بعض ما قاله فى غزواته فأنشده قوله :

صبرت سليم للطعان وعامر ... وإذا جزعنا لم نجد من يصبر

فقال عبد الملك : كذبت ، ما أكثر من يصبر ، فقال الجحاف :

نحن الذين إذا عـلوا لم يفخروا ... يوم اللقاء وإذا عُلوا لم يضجروا

فقال عبد الملك : صدقت ، ثم لقيه الأخطل ، فقال الجحاف :

أبا مالك هل لمتنى إذ حضضتنى ... على القتل أم هل لا منى لك لائم ؟
أبا مالك إنى أطعتك فى التى ... حضضت عليها فعل حرّان حازم
فإن تدعنى أُخرى أجبك بمثلها ... وإنى لطبّ بالوغى جد عالم[2]

وتزعم الرواية ، أن الأخطل قال له : أراك والله شيخ سوء ، وقال جرير فى ذلك معرضاً بالأخطل وهزيمة تغلب يوم الكحيل :

فإنك والجحاف يوم تحضه ... أردت بذاك المكث والورد أعجل
بكى دوبل لا يرقأ الله دمعه ... ألا إنما يبكى من الذل دوبل
وما زالت القتلى تحور دماؤهم ... بدجلة حتى ماء دجلة أشكل[3]

فرد عليه الأخطل لائماً على بنى مروان تساهلهم مع قيس ، مهدداً بالتخلى عن مؤازرتهم فى قوله :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة ... إلى الله منها المشتكى والمعوّل

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٥٧ وما بعدها .
(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٥٧ .
(٣) الأغانى جـ ١١ ص ٥٧ .

فسائل بنى مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصّل
فإلاّ تغيّرها قريش بملكها يكن عن قريش مستراد ومرحل[1]

وقد مال الجحاف بعد ذلك إلى السلم وتأله وحج ونسك .

وما سقنا هذه الأحداث إلا لندل على أن السياسة قد اختلطت بالعصبية وما جرته من ذحول وثارات ، إذ اشتعلت العصبيات ونشبت الوقائع بين القبائل القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وسل الشعراء ألسنتهم فى الفريقين مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين لخصومهم فاخرين ومتهاجين هجاء مريراً .

ولم يقتصر الأمر على التناقض العصبى بعد اختلاط العصبية بالسياسة فكان هوى قيس المضرية مع آل الزبير الذين كانت دعوتهم القرشية رمزاً لسيادة مضر على قبائل اليمن المتحالفة مع الأمويين .

ومن ثم اختلطت فى شعر الشعراء العصبية بالسياسة ، فتراصّ شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجهم القشيرى وابن الصفّار المحاربى، ووقف أمامهم شعراء كلب من أمثال جوّاس بن القعطل وعمرو بن مخلاة الحمار ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل . وأخذ كل فريق يريش سهام الوعد والوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، ويصبغ هذا العداء العصبى بصبغ سياسى ، ويدل على ذلك ما جاء فى قصيدة الأخطل التى مدح فيها عبد الملك منوهاً بجوده فقد مضى بعد ذلك يفصل الحديث عن حربه لمصعب ومهارة عبد الملك فى قيادة الجيوش والظفر بخصومه ، مادحاً أسرته ، منوها بشرفها ، وأنفتها وبأسها وحلمها وصلابتها ، غير ناسٍ أن يضع قومه التغلبيين موضع حلفاء الدولة مشيدا بنضالهم وبوقوفهم فى صفها وانتصارهم على أعدائها ، وبطبيعة الحال كان عليه أن يحمل على أعداء قومه وأعداء الدولة من قيس فيحذر ممدوحه من زفر بن الحارث زعيمها ، وكان قد دخل فى طاعته بغية

---

(١) نفس الموضع .

أن يُحفظه عليه وعلى قبيلته ، يقول :

بنى أمية إنى ناصح لكم ... فلا يبيتنْ فيكم آمناً زفر
واتخذوه عدوًّا إن شاهده ... وما تغيب من أخلاقه وعر
إن الضغينة تلقاها وإن قدمت ... كالعرّ يكمن حيناً ثم ينتشر
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا ... لما أتاك ببطن الغوطة الخبر
يُعرِّفونك رأس ابن الحباب وقد ... أضحى وللسيف فى خيشومه أثر
فلاهدى الله قيساً من ضلالهم ... ولا لعاً لبنى ذكوان إن عثروا
ضجوا من الحرب إذ غضت غوارهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر[1]

وكذلك يفعل جرير وقد اتخذ موقف المدافع عن قيس ، فقد سارعت عشيرته اليربوعية بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوى عشيرته مع قيس فراح يفخر على الأخطل وقومه ، بما أنزلته قيس بهم من فتك يوم البشر ، فيقول :

إنى رأيتكم والحق مغضبة ... تخزون أن يذكر الجحاف أوزفر
قوماً يردون سرح القوم عادية ... شعث النواصى إذامايطرد العكر
قادوا إليكم صدور الخيل معلمة ... تخشى الطعان وفى أعطافها زور
فامنعتم غداة البشر نسوتكم ... ولاصبرتم لقيس مثل ماصبروا
تهجون قيساً وقد جزّوا دوابركم ... حتى أعزّ حصاك الأوس والتمر
ياخزر تغلب إن اللؤم حالفكم ... ما دام فى ماردين الزيت يعتصر
تسربلوا اللؤم خلقاً من جلودهم ... ثم ارتدوا بثياب اللؤم واتزروا[2]

وكان تصادف أن مجاشعيًّا قتل الزبير بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وتصادف أيضاً أن النوار زوج الفرزدق لجأت حين غاضبته إلى عبد الله بن الزبير واستجارت بامرأته بنت منظور بن زبّان فخرج الفرزدق عائذاً بحمزة بن عبد الله بن الزبير ومدحه بشعر منه قوله :

---

(١) ديوان الأخطل ص ١٠٥ .
(٢) د ن جرير ص ٢٦٠ .

يا حمز هل لك فى ذى حاجة عرضت ... أنضاؤه ببلاد غير ممطور
فأنت أولى قريش أن تكون لها ... وأنت بين أبى بكر ومنظور
بين الحوارىّ والصديق فى شعب ... نبتّن فى طيب الإسلام والخير[1]

ولكن أمر النوار جعل يقوى بينما ضعف أمر الفرزدق فى هذا النزاع مما حدا به إلى أن يقول فى ذلك معرضا بابن الزبير وابنه :

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم ... وشفعت بنت منظور بن زبّانا
ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً ... مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا[2]

وتذكر الروايات أن ابن الزبير زجر الفرزدق ، ووصف قومه من مجاشع بأنهم جالية العرب وأنهم وثبوا على البيت قبل الإسلام بمائة وخمسين عاماً فاستلبوه ، وسيرتهم قريش من أرض تهامة مطرودين ، مما أحفظ الفرزدق فهجا ابن الزبير مفتخراً عليه بقومه محذراً إياه من أن يؤذيه فى قوله :

فإن تغضب قريش ثم تغضب ... فإن الأرض ترضاها تميم
هم عدد النجوم وكل حى ... سواهم لا تعد لهم نجوم
فلولا بنت مرّ من نزار ... لما صح المنابت والأديم
بها كثر العديد وطاب منكم ... وغيركم أحذّ الريش هيم
فمهلا عن تذلل من عززتم ... بجولته وغرّ به الحميم
أعبد الله مهلا عن أذاتى ... فإنى لا الضعيف ولا السؤوم
ولكنى صفاة لم تؤنس ... تزلّ الطير عنها والعصوم
أنا ابن العاقر الحور الصفايا ... بصور حين فتّحت العكوم[3]

وهكذا كانت إعانة ابن الزبير النوار على الفرزدق من الأسباب التى دفعت به إلى الوقوف فى وجه قيس حليفته ضد شاعرها المحامى عنها جرير ، فاشتبكا

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٢٠ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ١٨٢ .

فى الهجاء من ناحية بينما اشتبك جرير والأخطل شاعر تغلب عدوة قيس من ناحية أخرى .

وقد وقف الشعراء الثلاثة حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية وتكريسها مستلهمين فى ذلك ظروف العصر وأحداثه السياسية ، وكان عملهم من العوامل التى ساعدت على امتزاج العصبية بدخولها وثاراتها مع السياسة بأحزابها واتجاهاتها الأمر الذى هيأ لاشتعال نيران الهجاء طوال العصر ولنمو فن النقائض نمواً واسعاً .

٢

ليس للشعر الزبيرى غير موضوع واحد هو السياسة ، من دعوة إلى تعاليمهم وبيان لمذهبهم فى الخلافة وما يقوم عليه من دعائم ، وما تستوجبه الدعوة من إشادة بالتعاليم وبيان لمذهبهم فى الخلافة وما يقوم عليه ، وما تستوجبه الدعوة من إشادة بالتعاليم والدعائم وبصاحب الدعوة وصفاته والاحتجاج له بإضفاء المميزات التى تراها الدعوة شرطاً لازماً لمن يلى ذلك المنصب الخطير ، وما يتبع ذلك من الرد على خصوم الدعوة وصاحبها والحملة عليهم على اختلافهم بين أمويين وخوارج وشيعة وغير هؤلاء من القبائل التى انحازت إلى الدولة وتخلت عن مناصرة آل الزبير .

ووراء هذه الموضوعات لا نكاد نجد للشعر الزبيرى غاية أخرى ، وقد عبر شعر الزبيريين عن كل تلك الموضوعات تعبيراً دقيقاً حتى إننا لا نكون مغالين إذا ما قلنا إنه كان سجلا وافياً لحركتهم بكل تفاصيلها .

فقد سجل الشعر عقيدة الزبيريين الأساسية ، وما تقضى به من ضرورة كون الخلافة فى قريش فهى عز العرب ورمز وجودهم ، ولا حياة لهم بدونها ، وهى عماد الخلافة فإذا ما زالت عنها سقط ركنها سقوطاً لا ترتفع بعده ، كما يقول ابن قيس الرقيات :

إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحى بقاء
لو تقفى وتترك الناس كانوا غنم الذئب غاب عنها الرعاء[١]

والتاريخ شاهد على أن الملك كان موفورا لقريش قبل أن تتفتت وحدتها ويتفرق شملها إذ كانت آنذاك سيدة العرب وأمرها جميع ، فلما تفرقت طمع فيها الطامعون واشرأب إلى سلطانها سائر القبائل ، وشمت فيها الأعداء ، واشتهى فناءها الخصوم كما يقرر ذلك شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات فى قوله :

حبذا القوم حين قومى جميعٌ لم تفرق أمورَها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى ملـ ـك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فناء قريش بيد الله عمرها والفناء[٢]

وقريش فضلا عن ذلك ، سادنة الكعبة وصاحبة أمر البيت الحرام ، خصها الله بهذا الشرف دون جميع العرب ، فكرامتها من كرامة البيت وهى آمنة بجوار الحرم يجرى لها الثراء مع أولئك الذين تهوى أفئدتهم إليه فيأتون رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق وهم تجار العرب ومركز الثقل فى الغنى والجاه حتى استحقوا حسد العرب :

لم نزل آمنين يحسدنا النا س ويجرى لنا بذاك الثراء

كان هذا حال قريش قبل أن تمزقها الأهواء ويغريها جاهها وسلطانها ألا تعبأ بوحدتها فجرت خلف المطامع وهجرت الحجاز إلى دمشق وربوع الشام وتركت وراءها مكة وماحولها فتفرقت قريش بلداناً وشيعاً مخلفين وراءهم وطنهم وديارهم مقفرة تبكى ساكنيها كما يقول شاعرهم :

أقفرت بعد عبد شمس كداء فكدى فالركن فالبطحاء
فمنى فالحجاز من عبد شمس مقفرات فبلدح فحراء

ومعنى هذا أن اعتقاد الزبيريين بضرورة كون الخلافة فى قريش ليس أمراً متعلقاً بفكرة مجردة وإنما هو واقع عملى أيضاً بحيث تكون عاصمة تلك الخلافة

(١) الديوان ص ١٨٢ (٢) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٢ .

التى يعنون فى الحجاز ، وبحيث تعتمد فى قيامها على العناصر القرشية الصميمة ، وليس على كلب وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التى ظاهرت دولة الأمويين وكرست السلطان بعيداً عن الحجاز حتى تحول مصراً كالأمصار لا يتميز عنها فى شىء ولا تمتد إليه عناية الأمويين وحلفائهم من اليمنية إلا بالقمع والإرهاب حتى لم يسلم من أذاهم بيت الله الحرام نفسه فحرقوه بأيدى حلفائهم من اليمنية من أمثال عك ولخم وجذام ولكن الزبيريين الذين يعرفون حق حرمته أعادوا بناءه من جديد ، وكذلك لم يسلم من أذاهم أهل الحرم فاستبيح حماهم وأعلنت مكة والمدينة بلدين مستباحين لنهب الجند الشاميين ونكالهم وفتكهم كما يقول شاعر الزبيريين :

ليس لله حرمة مثل بيت ... نحن حجابه عليه الملاء
خصه الله بالكرامة فالبا ... دون والعاكفون فيه سواء
حرّقته رجال لخم وعك ... وجذام وحمير وصداء
فبنيناه بعد ما حرّقوه ... فاستوى السّمك واستقل البناء

فاعتداد العقيدة الزبيرية بالقرشية لا ينفصل عن اعتدادها بالحجاز ، وما يشتمل عليه من الأماكن المقدسة ، وهذا يضفى على الفكره العصبية صبغاً دينيًّا مقدساً ، حتى يمكن القول بأن العقيدة الزبيرية إنما كانت تمثل الخلافة كما تراها الأرستقراطية العربية المضرية الحجازية المسلمة أقوى تمثيل ، وهى بهذا منصب لا يجدر به إلا عربى قرشى يعتز بمضريته وبموطنها الأصلى ومركز فخارها الدينى فى الأماكن المقدسة بالحجاز .

ولهذا فقد التزم شعر الزبيريين بتصوير الخليفة تصويراً يجمع له فيه هذه الصفات فعبد الله بن الزبير ابن الحجاز ، درج ببطاحه وجباله وحول البيت وأركانه ، وهو من قريش أعز معدن من معادنها ، وأوفى فرع فيها وأوفاها حظًّا من السلطان والحكم والقضاء ، وأعلمها بها ، وأصحها فى دائها ، وأشرفها نسباً وأتمها إذا نسبت إلى آبائها وكل بلاد غير بلاده ضيق فضاؤها كما يقرر كل ذلك شاعر آل الزبير فى قوله لعبد الله :

أنت ابن معتلج البطا ح كديها وكدائها
فالبيت ذى الأركان فال ممتنّ من بطحائها
فمحل أعلاها إلى عرفاتها فحرائها
من سرها فيها ومعد ن برها ووفائها
أوفى قريش بالعلا فى حكمها ، وقضائها
ولأنت أعلمها بها وأصحها فى دائها
وأتمها نسبا إذا نسبت إلى آبائها
إن البلاد سوى بلا دك ضاق عرض فضائها[1]

وعلى هذه الصورة احتج شعر الزبيريين للدعوة الزبيرية ، ودافع عن جدارة الزبيريين ورأس دعوتهم عبد الله واستدل على أحقيته بالخلافة بقرشيته ، لأن قريشاً أصل الخلافة والحكم والقضاء ، وسادنة البيت ، وقاطنة الحجاز مهبط الوحى وبؤرة الإسلام ، كما احتج بكفاءته ، فهو أعلم قريش بشئونها ، وأصح أعضائها ، وأتمها نسباً ، وأكثرها برًّا ، وأشدها وفاء ، وأوفرها تقوى وصلاحا وخيرا .

وعبد الله فضلا عن ذلك ابن حوارى الرسول وابن عمته ، كما يقول شاعرهم :

بابن الحوارى الذى لم يعده هل الوقيعة[2].

وهو فضلا عن ذلك أيضاً ابن أسماء بنت أبى بكر ، وأخت عائشة ، وهو فتى قريش كما يقول شاعرهم :

وابن أسماء خير من مسح الر كن فعالا وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هجان قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا[3]

وقد أشاد الشعر الزبيرى بتدين عبد الله وأخيه مصعب وبقوة إيمانهما ، وقيام

---

(١) الموشح ص ١٨٦
(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٢
(٣) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٩

ملكهما القوى على دعائم وتعاليم الإسلام ، لا على البطش والزهو والخيلاء ، كما نوه بروحانيتهما وبأنهما من الهداة الذين يكشفون الظلم ، وأشاد بصلاحهما وتقواهما وباتقائهما الله فى جميع الأمور ، فكل منهما يعتمد على التقوى فى حكمه ويعدها سبباً لكل فلاح ونجاح ، كما يقول ابن قيس الرقيات فى مصعب ابن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفلـ ... ـح من كان همّه الأتقاء

وآل الزبير يستهدفون قيام حكم إسلامى ولهذا فقد تقبلوا بيعة المسلمين على أساس تعاليم الإسلام ومبادئه ، فبايعهم الناس بيعة الإسلام ، كما بايعتهم الجموع المباركة على الجهاد فرسانا فى سبيل الإسلام يتقدمون زحفهم ، ويحمون ظهرهم تحت قيادة قائد مؤمن ناسك مبارك وفارس شديد المراس أيضاً ، لا يكاد يمزق كتيبة حتى يميل على غيرها فيفتك بها فتكاً ذريعاً :

على بيعة الإسلام بايعن مصعباً ... كراديس من خيل وجمعا مباركاً
تدارك أخرانا وتمضى أمامنا ... وتتبع ميمون النقيبة ناسكا
إذا فرغت أظفاره من كتيبة ... أمال على أخرى السيوف البواتكا

وكان ضرورياً والمصالح الحزبية تحتك وتتصادم أن يعنى الشعر الزبيرى بالحملة على خصوم الدعوة الزبيرية ، والطعن عليهم والتنديد بهم وإثارة الأحقاد ضدهم ، وقد حمل شعر الزبيريين على بنى أمية وملكهم حملات شعواء ، وأعلنهم بالعداء وهددهم بالويل والثبور وعاب عليهم ما ارتكبوا من شرور كقتل الحسين بن على حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم فى كربلاء وهو أمر استخدمته دعوة الزبيريين فى بداية قيام حكمهم ، فضربوا على نغمة الحزن على الحسين وشهروا ببنى أمية تشهيراً ، وقد صور ذلك عبيد الله بن قيس فى قوله :

---

(١) الديوان ص ١٨٤
(٢) ديوان ابن قيس ١٥٩

كيف نومى على الفراش ولمّا تشمل الشامَ غارةٌ شعواء
تُذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن عراها العقلية العذراء
أنا عنكم يابنى أمية مزوّر وأنتم فى نفسىَ الأعداء
قتلىَ بالطف قد أوجعتنى كان منكم — لئن قتلتم — شفاء[1]

وكان لاصطدام حركة الزبيريين بحركة المختار فى العراق أصداء فى شعر الزبيريين فندد شعرهم بالمختار وسخر منه ومن شعوذاته وكذب ترهاته وتوعده وشيعته من الكيسانيين بالقتال حتى الموت كما جاء فى قول سراقة البارقى ، وكان قد وقع فى أسر المختار للخلاص منه بأن زعم أنه رأى الملائكة تحارب فى صفه ثم لاذ بمصعب حيث رمى المختار من البصرة بالشعوذة والدجل على هذا النحو من السخرية :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيت البلق دهما مصمتات
أُرِى عينىّ ما لم تبصراه كلانا عالم بالترهات
إذا قالوا أقول لهم : كذبتم وإن حرجوا لبست لهم أداتى
كفرت بوحيكم وجعلت نذرا على قتالكم حتى الممات[2]

وقذف شعرهم حلفاء بنى أمية من قبائل اليمن الشامية وتغلب بحمم هجائه مستنكراً تطاولهم إلى الوقوف ضد دعوة الزبيريين منددا بتجرئهم على إستباحة الحرم وتحريق البيت كما يقول ابن قيس :

حرّقته رجال لخم وعك وجذام وحمير وصداء

ولج شعر القيسية فى مضمار الصراع مع قبائل اليمن فعبر عن سخط قيس على سياسة الأمويين واعتزازهم باليمنية ، وشعر قيس إنما يصدر فى ذلك عن إيمان بالفكرة الزبيرية فى تصور القيسين ابن الزبير منقذاً لمضر من سيطرة اليمنية واستفحال أمرها ، وخليفة يمثل آمالها فى الارتفاع بها وبالعصبية المضرية

---

(١) الديوان ص ١٨٣ ١٨٤ ، الأغانى جـ ٥ ص ٧٨
(٢) الطبرى جـ ٧ ص ١٢٣ ابن الأثير جـ ٤ ص ١٠٠ جـ ٥ ص ٧٨

إلى حيث تشتهى من السطوة والسلطان .

ويبدو ذلك بوضوح فى ما مر بنا من شعر القيسية ، وبخاصة فى تلك الأبيات التى قالها زفر بن الحارث واستنكر فيها بشدة انتصار حسان بن بحدل زعيم الكلبية فى مرج راهط وانخذال ابن الزبير زعيم المضرية أمامه . وتوعد كلباً وعيداً مليئاً بالأمل فى النصر والظفر والإيمان بأن الحق سيعلو يوماً وإن تأخر ، يقول :

أفى الله أما بحدل وابن بحدل فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ولمّا يكن يوم أغرّ محجل
ولمّا يكن للمشرفية فوقكم شعاع كقرن الشمس حين ترحل[١]

ويلحق بهذا الضرب من ضروب شعر الزبيريين لون طريف من ألوان الكيد للخصوم والحملة عليهم ، وهو نوع من الهجاء يشتبك بضرب آخر من ضروب الشعر هو الغزل . وقد لجأ الشعر الزبيرى إلى هذا اللون بقصد العبث بخصوم الدعوة عبثاً يشتمل على الإهانة والسخر ويحمل على الغضب والحنق . لأن هذا اللون يذكر نساء الخصوم بما لا يحسن ذكره فى صورة الغزل ، أى أنه يتوسل بالغزل الفاضح إلى الهجاء المقذع وإلى التشهير بهم . وقد سمى هذا اللون بالغزل الكيدى [٢] أو بالغزل الهجائى[٣] .

وبهذه الوسيلة احتال شعر الزبيريين فى إغاظة خصومهم ، وكيف لا يغتاظ عبد الملك والوليد ، والناس تتهامس بأبيات تصور أم البنين فى أحضان شاعر زبيرى ينال منها كل ما يريد وكأنها امرأة مبتذلة هلوك لا يمسكها طهر ولا عفاف وإنما تمعن مع ضجيعها فى اللهو إلى طلوع الفجر لا يوقظهما من نشوتهما إلا مناد ينادى لصلاة الصبح .

وتمكر الأبيات بعبد الملك فى خبث ، وتعبث به ، فتقدم إشارة تشير إلى أن هذا كله إنما حدث ذات ليلة فى المنام :

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ١٢٣
(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى ص ٢٢٥
(٣) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٥٢

أتتنى فى المنام فقلـ ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها ومال علىَّ أعذبُها
شربت بريقها حتى نهلت وبتُّ أشربها
وبتُّ ضجيعها جذلا ن تعجبنى ، وأعجبها
وأيقظنا مناد فى صلاة الصبح يرقبها[1]

وليس شك فى أن مثل هذه الأبيات قد أحفظ زوجها الوليد كما أحفظ أباه ، وأباها عبد العزيز بن مروان ، كما أغاظ بنى أمية جميعاً ونال منهم .

هذه إذن أغراض شعر الزبيريين وموضوعاته ، لا تخرج عن هدف الدعاء للعقيدة السياسية والإشادة بها وبرجالها والاحتجاج لحقهم بتعديد الميزات التى يتميزون بها ، والصفات التى تحليهم ، والحملة على خصومهم وهجائهم والتنديد بأعمالهم وتهديدهم والتحريض عليهم والعبث بأعراضهم بقصد الكيد لهم والنيل منهم .

٣

ويتميز الشعر الزبيرى بأنه شعر قليل ، وذلك لأن الحزب الذى صدر عنه كان حزباً قصير العمر ، فلم تعمر نظريته ، ولم تتأصل بالقدر الذى يتيح للإنتاج الشعرى أن يكثر وأن يتتابع فى التعبير عنها والانتصار لها ، وقد ساعد على قلة الإنتاج الشعرى أسباب شخصية تتصل برأس هذه الدعوة وعدم تقديره لدور الشعر فى الدعاء ، ولبخله الذى جعل الشعراء يزورون عنه إلى خصومه الذين يغدقون عليهم حتى لم ينج من شحه أقرب الناس إليه .

ويذهب كل شعر الزبيريين فى مجال واحد هو مجال السياسة ، فقد شغل فحسب بالدعوة إلى مذهبهم والدفاع عنه والتنويه بصاحبه وآله ، وبالحملة على

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٢١٨ .

خصومهم ، وقد رأينا كيف أشاد بعبد الله ومصعب وفاخر بنسبهما وحسبهما وبإسلامهما وتقواهما وصلاحهما ، مما يجعلهما جديرين بما يحاولان من السلطان ، لتمتعهما بشرف النسب القرشي ورعايتهما لتعاليم الإسلام وشعائره وحرماته .

وقد يجدر بنا أن نلاحظ أيضاً أن صورة الخصوم فى الشعر الزبيرى تفتقد هذين العنصرين الأساسيين فى الفكرة الزبيرية ، فالقبائل اليمنية على إسلامها ليست جديرة بالسلطان لأنه حق مضر وذروة شرفها قريش ، وبنو أمية على قرشيتهم ليسوا أكفاء لآل الزبير الذين يرعون حرمات الله ، ولا يقوم ملكهم على القوة والجبروت مثلهم وإنما على البر والتقوى والصلاح ، وكذلك فإن بلادهم التى اتخذوها مركزا للسلطان وقاعدة للحكم ليست فى قداسة الأرض التى جعلها الله مثابة للناس وأمناً ، وأمر الناس باستقبالها فى صلاتهم .

وبهذا يكتسب الشعر الزبيرى خصيصة مميزة وهى أنه شعر يصدر عن السياسة التى تعتد بعنصر الدين فهو شعر يعبر عن السياسة الدينية إذن .

وقد تجلت الملامح الدينية فى شعرهم ، فانطبع بطابع إسلامى واضح يبدو فى عدة مظاهر منها الإلحاح على وصف عبد الله ومصعب بصفات دينية ، كما جاء فى أبيات للنابغة الجعدى شبه فيها عبد الله بن الزبير فى سيرته العادلة بالصديق وعمر وعثمان وأشاد برعايته لمبادئ الإسلام فى التسوية بين سائر الناس كما يقول :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فى العدل فاستووا ... فعاد صباحا ، حالك اللون مظلم[1]

ومن ذلك أيضاً تصوير الزبيريين ، ومن ناصرهم من العرب ، وتابعهم من المسلمين فى صورة دينية خالصة ، كتسمية الحزب الزبيرى بحزب الله ، ووصف من اتبعوا تعاليمه بأنهم شرطة الله فى قول سراقة البارقى بعد مقتل ابن زياد يوم خازر :

---

(١) تهذيب الكامل جـ ١ ص ٢٢٥

جزى الله خيراً شرطة الله إنهم شفوا من عبيد الله أمس غليلى[١]

ومن ذلك أيضاً ، وصف أعدائهم بأنهم شرطة الكفر فى قول أعشى همدان متهكما بمخاريق الكيسانية :

شهدت عليكم أنكم سبيئة وأنى بكم يا شرطة الشرك عارف[٢]

ويشيد شعرهم باعتدادهم بما أنزل الله من الوحى والاعتماد عليه فى إقامة حكمهم من مثل قول أعشى همدان :

وإنى امرؤ أحببت آل محمد وتابعت وحيا ضُمِّنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تتابعت عليه قريش شمطها والغطارف[٣]

وشعر الزبيريين باستثناء القليل منه ، وهو الجزء الذى انتجع به أصحابه كرم آل الزبير ورفدهم ، يتميز بحرارة العاطفة وصدق الإحساس ، وذلك لأنهم أصحاب عقيدة آمنوا بها إيماناً عميقاً فجاء شعرهم قوياً متدفقاً ، وأوضح مظهر لهذه الحرارة حملاتهم الشعواء على خصومهم ، وتوعدهم إياهم ، فليس هناك فى شعر الفرق المعارضة للأمويين ما يمكن أن يمثل حقد الموتورين منهم كما تمثله أبيات عبيد الله بن قيس الرقيات التى يقول فيها :

كيف نومى على الفراش ولمّا تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن براها العقيلة العذراء[٤]
أنا عنكم يا بنى أمية مزو رٌّ وأنتم فى نفسىَ الأعداء

أو كقوله بعد وقعة الحرة :

واللهِ أبرح فى مقدمة أهدى الجيوش علىّ شكتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم بنسوتيه[٥]

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٤٦ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٤١ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٤١
(٤) الديوان ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، الأغانى جـ ٥ ص ٧٨ .
(٥) الديوان ص ١٨٩ .

وليس شك فى أنه حقد دفين لا يقنع بما هو دون استئصال بنى أمية وملكهم وحلفائهم من قبائل الشام اليمنية وبخاصة كلب التى بلغ من حقد زفر بن الحارث الكلابى زعيم قيس عليها ما جعله يقول :

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا[1]

وسر هذه الحرارة الشعورية أنه شعر عقيدة ، وليس شعراً مزور العاطفة تمدحاً واستعطافاً وأنه يصدر فى المقام الأول عن إحساس عرقى شديد التعصب لعصبية بعينها وإن كان الإسلام قد خفف إلى حد ما من غلوائه إلا أن مذهبهم قد استطاع أن يحتوى الإسلام وأن يزعم الصدور عن تعاليمه وأن يزاوج بينه وبين العصبية ليستخرج من امتزاجهما إحساساً أرستقراطيا مستعلياً ، وقد تميز عن شعر المعارضين جميعا فى هذا الغرض بلجوئه إلى الغزل الكيدى نكاية فى الخصوم وهو اتجاه قبلى جاهلى السمات فى إفحاشه وإقذاعه على الرغم من الاحتيال فى الاستخفاء وراء الحلم والمنام .

وشعرهم بسبب من حرارة العاطفة العصبيةوتدفقها لم يسلك مسلك البرهنة ولا الاحتجاج للمذهب وإنما اتجه إلى دعمه بالتأثير العاطفى ولم يلجأ إلى التدليل العقلى ولهذا فقد جاء شعرهم غنائيًّا صرفاً بعيداً كل البعد عن اصطناع أساليب الجدل والمنطق إذ لم تفسح العقيدة فيه مجالا للرأى ، فالدعوة لحكم قريش وجدارتها بالسلطان وتميزها عن بقية العصبيات لا تستند إلى أسانيد عقلية ولا منطقية ، وإنما تقوم على أسس عرقية عاطفية فحسب ، فضلا عن مجافاتها لروح العدل والمساواة التى جاء بها الإسلام ، ولهذا كان الاحتجاج لآل الزبير احتجاجاً عاطفيًّا خالصاً ، فابن الزبير خير من مسح الركن فعالا وخيرهم بنياناً وهو هجان قريش إذا القوم قالوا من الفتى ، ومن الهجان ؟ ومصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء إلى غير هذا من ألوان الاحتجاج الذى لا يستند على أسس سوى العاطفة .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤١ .

وحقاً كانت العاطفة الحارة سمة من سمات الشعر الزبيرى ، وبخاصة العاطفة الحزينة التى تكاد تسود شعرهم جميعاً ، وهى تشبه من بعيد عاطفة الشيعة وإن كانت لا تمثلها لا ختلاف مصدرهما ولا شك فى أن ذواء الحلم الزبيرى بهذه السرعة وسوء الحظ الذى منوا به فى فترة نفوذهم القصيرة كانت من أهم الأسباب الفاعلة فى انطباع شعرهم بطابع العاطفة الحزينة من مثل قول ابن قيس الرقيات مصوراً الحال التى آلت إليها قريش بتفرقها وتمزق وحدتها .

لو بكت هذه السماء على قو م كرام بكت علينا السماء
عين فابكى على قريش وهل ير جع ما فات ، إن بكيت البكاء
معشر حتفهم سيوف بنى العلا ت يخشون أن يضيع اللواء
ترك الرأس كالثغامة منى نكبات تسرى بها الأنباء[1]

أو فى قوله وقد تخلت بكر بن وائل وتميم عن نصرة مصعب أمام عبد الملك :

فما نصحت لله بكر بن وائل ولا صبرت عند اللقاء تميم
ولو كان بكرياً تعطف حوله كتائب يغلى حميها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن بهامضرى يوم ذاك كريم[2]
وإن بنى العلات أخلوا ظهورنا ونحن صريح بينهم وصميم

ولكن هذه العاطفة الحزينة سرعان ما تنقلب إلى حقد دفين ، واستعلاء بعيد ، واعتزاز شديد وهدير متدفق عند الحديث عن قريش أو ذكر الحجاز فى مواطن الفخار من مثل قول عبيد الله بن قيس :

إن البلاد سوى بلا دك ضاق عرض فضائها
فاجمع بنىّ إلى بنيـ ـك فأنت خير رعائها
نحن الفوارس من قرى ش يوم جد لقائها[3]

وكان من نتائج هذا المسلك أن جاء شعرهم رصيناً ، جزل الأسلوب ، قوى التركيب ، متين السبك ، تقليدى الإطار ولكنه فى نفس الوقت رقيق اللفظ

---

(١) الديوان ص ١٨٢ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٨٧ .
(٣) الموشح ص ١٨٦ .

أنيق التعبير رائق النغم سلس التدفق ، وهو من هذه الناحية شعر الأرستقراطية العربية الذى يمثلها خير تمثيل فى فخامة ألفاظه ورقتها فى نفس الوقت واستعلاء عاطفته وتقليدية إطاره .

وهكذا يمكننا أن نزعم أن الشعر الزبيرى شعر يتميز بميزات خاصة تميزه دون غيره من الشعر فى أغراضه وموضوعاته وطرائق تعبيره وأدائه .

فشعر الزبيريين شعر قليل بفعل ظروف عامة ترجع إلى قصر عمر الحزب ، وعدم تأصل أفكاره كما ترجع إلى ظروف خاصة برأس هذا الحزب وشحه وعدم تقديره لرسالة الشعر ودور الشعر الأساسى فى الدعاء .

وقد ترك الإسلام آثاراً واضحة فى صبغ هذا الشعر بصبغه ، وانطباعه بطوابع جلية منه فى تأييد المذهب والترويج له بإضفاء صفات إسلامية على رجاله والاعتداد بقيم إسلامية فى نظام حكمهم ، وهجاء خصومهم بنقيضها ، والتنديد بمخالفتهم عنها ، وعلى الرغم من وجود هذه الملامح الإسلامية فإن ملامح جاهلية قد برزت فى شعرهم ، وبخاصة فى الهجاء ، والحملة على الخصوم وهى أثر من آثار الصراع القبلى الذى استشرى بين القبائل المضرية الموالية والقبائل اليمنية المتحالفة مع الأمويين . ومن مظاهر هذا الاتجاه اعتدادهم بالعصبية واللجوء إلى الإفحاش فى تناول أعراض الخصوم والاحتيال للكيد لهم بالغزل الهجائى .

ويسرى فى شعرهم إحساس متدفق ، وعاطفة متأججة ناتجة عن شدة التعصب للدم وقوة الإحساس والتميز ، وهى عاطفة قوية لم تفسح مجالاً للاستدلال العقلى أو اصطناع أساليب الجدال والمنطق . فكان قوام الاحتجاج للمذهب وسائل عاطفية محضة وهى عاطفة يغلب عليها الحزن والتحسر للظروف السيئة التى منيت بها حركتهم ، ولقصر عمر سلطانهم ، ولكنها عاطفة قوية مستعلية فى مواضع الفخار مليئة بالحقد الدفين والتصميم على الثأر واستئصال العدو .

وإذا جاز لنا أن نقول إن شعر الزبيريين صدر عن إحساس الأرستقراطية العربية وعبر عن غاياتها وآمالها فإنه يمكننا أن نقول إنه كان أرستقراطياً فى فنيته بما توافر له من فخامة وأناقة ورقة .